

المصعد الذي يعرف أسماءنا

حمادة حامد محمود نور الدين

في عمارةٍ عتيقة بوسط البلد، لا يركب أحدٌ المصعد بعد منتصف الليل... إلا من فقد شيئًا لا يُشترى.

عرف مصطفى سلامة هذه الحكاية في أول يومٍ وقف فيه أمام العمارة، حقيبة عدّته على كتفه وورقة الحساب في جيبه. فني مصاعد في الرابعة والثلاثين، ورث عن أبيه ورشةً صغيرة تُحتضر، وكان يقبل أي شغلانة، حتى لو كانت في عمارةٍ يتهامس أهلها أن مصعدها «بيروح لدورٍ مش موجود».

قال له البواب عاشور وهو يفتح له باب غرفة الماكينة: «الناس بتشتكي إن المصعد بينزل لوحده كل ليلة بين اتناشر وتلاتة، ويقف عند الدور السابع ونص.»

رفع مصطفى حاجبيه: «العمارة سبعة أدوار يا عم عاشور.»

«بالظبط،» قال عاشور بهدوءٍ أغرب من الخبر نفسه، «عشان كده بناديناك إنت.»

فحص مصطفى كل شيء في ذلك النهار: الماكينة، الكابلات، لوحة التحكم، حسّاسات الأبواب. كل شيءٍ سليم كأنه خرج من المصنع

أمس. لكن سجلّ الرحلات كان يقول غير ذلك: رحلاتٌ كاملة كل ليلة، نزولًا وصعودًا، والعداد يتوقف دائمًا عند رقمٍ لا وجود له: ٧ ونص.

قال عاشور وهو يسلّمه مفتاح المدخل: «اسمع نصيحة عجوز يا مصطفى. العمارة دي بتعرفنا كلّنا. لو ناداك باسمك... متجاوبش.»

ضحك مصطفى. كان يومها ما زال يضحك.

في الليل، قرر أن يبقى ليرصد العطل بنفسه؛ فالعطل الذي لا يظهر للفني في النهار يظهر له في عقر داره. جلس في الصالة على كرسي البواب، وشرب شايه الثالث، وراقب المصعد.

وفي الرابعة واثنتي عشرة دقيقة بعد منتصف الليل، تحرّك المصعد وحده.

نزل من أعلى، وقف أمام مصطفى، وفتح بابه على كابينةٍ فارغة مضيئة، وعلى الشاشة رقمٌ واحد: ٧ ونص. وانتظر.

ثم ناداه.

«يا مصطفى يا ابن سلامة...»

تجمّد كوب الشاي في يده. الصوت كان يخرج من الكابينة نفسها، من فتحة السماعة الصدئة، صوتًا هادئًا كأنه يعرفه منذ سنين. لكن الذي جعل ركبتيه ترتجفان لم يكن الاسم. الذي جعلهما يرتجفان كان ما قاله الصوت بعدها، بنبرة امرأةٍ لم يسمعها منذ عشرين سنة:

«يا طوطو... تعالى.»

لم يكن أحدٌ في الدنيا يعرف هذا الاسم. أمه وحدها كانت تناديه به، وأمه ماتت وهو في الرابعة عشرة.

كان الأقسى على مصطفى أن يركب، وكان الأقسى ألا يركب. ركب. قال لنفسه إنه فني، والفني لا يخاف من ماكينة. أغلق الباب، وصعدت الكابينة صعودًا طويلًا، أطول من أن يكون سبعة أدوار، ثم توقفت وانفتح الباب على بهوٍ ليس من العمارة في شيء.

ورق حائط منقوشٌ بورود السبعينيات، وثريا صغيرة تغسل المكان بضوءٍ دافئ، ورائحة ياسمين، وصوت عودٍ بعيد يعزف «لما كان

الكلام حلو». وعلى الأبواب المصطفّة لوحات نحاسية محفور عليها أسماء.

قال له صوتٌ خلفه: «أهوي، جيت أنت كمان.»

قبل أن يستدير، لمح مصطفى على الجدار المقابل لوحةً زجاجية فيها صور العمارة القدامى: سكان الأدوار السبعة في خمسينات القرن الماضي، يبتسمون أمام المدخل. وفي الصف الأخير، وجوهٌ كثيرة طُمست ملامحها بهتان الزمن... عشرات الوجوه بلا أسماء.

استدار مصطفى، فوجد رجلًا في الأربعين بملامح يعرفها من صورةٍ مفقودة قديمة كانت معلقة في مكتب شركة المصاعد: عم شكري، الفني الذي اختفى قبل عشرين عامًا وقيل إنه هاجر، وقيل إنه مات، وقيل كلام كثير لم يصدقه أحد. جالسًا على مقعدٍ خشبي، شابًا كما في الصورة تمامًا.

«فين أنا؟» سأل مصطفى وصوته يختنق.

«وانت عارف فين أنت يا شكري؟» رد عليه مصطفى، «الدنيا كلها بتدور عليك من عشرين سنة.»

هزّ شكري رأسه بهدوء: «الدنيا دوّرت عليّا أسبوع واحد يا مصطفى. شقتي اتأجرت بعد ما مشيت بعشر تيام. اسمي اتشال من دفتر الشركة في أول الشهر. جوزي اتجوزت، وولادي كبروا ونسيوا ملامحي. هنا... هنا اسمي محفور على الباب من عشرين سنة ما اتمسحش.»

«في الدور السابع ونص،» ابتسم شكري ابتسامةً حزينة، «والدور ده مش في العمارة يا مصطفى. الدور ده في النسيان. العمارة بتحفظ كل واحد سكنها والدنيا نسيته. كل باب من دول وراه حياةٌ ما تعاشتش.»

وأشار إلى باب مصطفى نفسه: نحاسة عليها «المهندس مصطفى سلامة». فتحها مصطفى بيدٍ مرتعشة، فرأى المكتب الواسع، والشهادة المعلّقة، والمشاريع الكبيرة، وابنه الصغير يرفع رأسه بفخر... الحياة التي باعها يوم مات أبوه ووجد الورشة تنتظر والديون تنتظر، فأغلق دفتر الهندسة وفتح صندوق العدّة.

قال شكري: «المصعد بيديك الفرصة ترجع لكل ده. بيقولك: قول "أنا باقي"، وابقى هنا كامل. التمن بسيط... بيسمّيك هنا باسمك

الحقيقي، الاسم اللي الدنيا بره نسيته.»

وشرد مصطفى في المكتب، ومدّ يده نحو الشهادة، وكاد يقولها. لكن شيئًا ما، ربما صوت «يا طوطو» البعيد، جذبه من كتفه إلى الخلف، فانسحب من الباب وركض إلى الكابينة، وضغط على الأرضي بكل قوته، ووصل الصالة والفجر يشقّ الستائر.

وفي الصباح، بينما هو يعبّئ لابنته ساندويتش المدرسة، نظرت إليه الصغيرة فجأة وقالت: «بابا، صوابعك بقت شفافة.»

نظر إلى يده. ضوء الصباح كان يخترق أطراف أصابعه اختراقًا خفيفًا، كما يخترق ورقةً رقيقة. أخفى يده بسرعة في جيبه وضحك: «دي لعبة النور يا حبيبتي.» لكنه في طريقه إلى المدرسة ظل ينظر إلى يده، وفي رأسه سؤال واحد: ماذا يحدث لو سمعتُ اسمي كاملًا؟

وفي الليلة التالية قال لنفسه: سأعود لأجمع دليلًا، صورًا، أي شيء. وما إن حلّ منتصف الليل حتى سمع رنين المصعد... في دوره هو. جاء إليه دون أن يُستدعى، وقف عند باب شقته في العمارة

الصغيرة التي يسكنها، وفي مرآة الكابينة رأى مصطفى شيئًا لم ينمه بعد: أطراف أصابعه كانت تبهت، تتلاشى قليلًا، كصورةٍ قديمة بدأت تفقد حبرها.

قال له شكري من خلف الزجاج: «أول مرة بتيجي ليه... تاني مرة بييجي لك... وفي التالتة بيناديك باسمك الحقيقي كامل. واللي يسمع اسمه كامل من المصعد... ما بيرجعش.»

في الليلة الثالثة لم ينزل مصطفى. أغلق باب شقته بالمفتاحين ووضع خلفه الترابيزة ونام ابنته الصغيرة في حضنه كأنها طُمأنينة. وعند منتصف الليل، طنّت العمارة كلها طنينًا واحدًا، وجاء الصوت من الحيطان، من المواسير، من فتحة التكييف:

«يا مصطفى يا طوطو يا ابن سلامة يا...»

وأدرك مصطفى أن الصوت يرتّب اسمه قطعةً قطعة، وأن القطعة الأخيرة قادمة، وأنها اسمٌ لا ينطقه أحدٌ سواه هو نفسه، في سرّه، حين ينظر في المرآة ويسأل: ماذا لو؟

فجرى. لم يجرِ هربًا، بل إلى الأسفل، إلى العمارة القديمة، لأنه عرف قبل الصوت أن يصل إلى باب نبيلة هانم في الدور الرابع. العجوز التي يسافر ابنها منذ تسع سنوات ولا يزورها، كانت واقفةً عند بابها في منتصف الليل، نصف مستيقظة، ومن سماعة المصعد يخرج اسمها كما كان أبوها يناديها: «يا نبوني...»

شدّها مصطفى من ذراعها إلى داخل شقتها وقال بكل صوته: «اسمك عند الناس اللي بتحبك يا نبيلة هانم... مش عند الحيطان!»

ثم وقف أمام باب المصعد، والصوت يكمل ترتيب اسمه هو، ورفع رأسه وقال:

«عايز اسمي الحقيقي؟ اسمي بابا مصطفى. ابنتي لما بتناديني كده بيكون ليّا اسمٌ ما يقدرش حد ياخده مني... مش المهندس، مش الورشة، مش الدور السابع ونص. اسمي بابا مصطفى، وابنتي صاحية وفاكراني، وأم سلمى جارتي بتسلّم عليّا كل صبح، وعم عاشور بيقولي يا هندسة وأنا مش هندسة. اسمي عند الناس... مش عندك.»

صمت المصعد.

وأغلق بابه ببطء، وعادت الشاشة إلى رقمٍ واحد بسيط: ٧.

وفي طريقه إلى بيته ذلك الفجر، مرّ مصطفى على فرّاش العمارة القديمة، فوجد عاشور نائمًا وعلى مكتبه ورقة بخطٍّ مرتعش: «اللي بينادي عليك بالليل مش مصعد يا مصطفى... اللي بينادي هو الجُوع اللي جوّه كل بيت، جوع الناس للي يسأل فيهم.»

لم ينادِ المصعد مصطفى بعد تلك الليلة أبدًا. لكن مصطفى فهم جوعه؛ فالمصعد لا يفترس، إنه يجمع من لا يجمعهم أحد، يفتح بابه لمن نسيتهم الدنيا. فبدأ مصطفى عادةً صغيرة سمّاها «عشية الخميس»: شايٌ وحلاوة في صالة العمارة كل خميس، والجيران ينزلون، والأسماء تتطاير في الهواء، والحكايات تتحرك من شقةٍ إلى شقة. وفي إحدى العشيات صوّر نبيلة هانم وهي تضحك، وأرسل الصورة لابنها في الغربة مع سطرٍ واحد: «أمك بتنادي عليك... والمصعد كمان بينادي. تعالى الأول.» وجاء الابن بعدها بأسبوعين.

ومرّت الشهور، وقلّت رحلات منتصف الليل حتى توقفت، وصار عدّاد المصعد لا يعرف إلا سبعة أدوار. لكن مصطفى، وهو يغادر العمارة آخر مرة، سمع في برجٍ مجاورٍ من أبراج المدينة رنين مصعدٍ يقف عند دورٍ لا وجود له، وصوتًا هادئًا يتدرّب على اسمٍ جديد.

المصاعد لا تنسى أحدًا... لكن الناس، أحيانًا، ينسون بعضهم أولًا.

تمّت

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app